

(١)

احترام النظام العام

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل شيء صنعه ، وكل شيء عنده بمقدار ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن من أسباب تقدم الأمم وعوامل رقيها وحضارتها احترام أبنائها للنظام العام ، فحفظ النظام واحترامه ، والالتزام بالقوانين سلوك ديني وحضاري ؛ إذ لا بد لكل فئة تتعايش في مجتمع واحد من بعض الأنظمة والقواعد العادلة التي تضبط سلوك الأفراد ، وتحفظ على الإنسان حقوقه ، ويُلزم فيها بأداء ما عليه من واجبات . وبدون النظام لن ينال الناس حقوقهم ، ولن يتحقق لهم العدل .

والمتمثل في هذا الكون الواسع يرى أن النظام سنة من سنن الله الكونية في الخلق ، فالكون كله يسير وفق نظام دقيق ، وترتيب بديع ، وتنسيق محكم ، وإتقان يُبهر العقول ، ولا عجب في ذلك فتلك صنعة بديع السموات والأرض التي قال عنها : { صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } ، فكل شيء في هذا الكون خلقه الله (عز وجل) وسخره لحكمة وبجكمة ، فلم يخلق سبحانه شيئاً في الكون عبثاً ، فالعبث محال على الله (عز وجل) ، قال سبحانه : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } ، وكل شيء في هذا الكون يؤدي دوره ووظيفته التي خلقه الله (عز وجل) من أجلها ، بانتظام وإتقان

(٢)

وإحكام ، بحيث لا يتقدم لاحقٌ على سابقٍ ، ولا يتأخر سابقٌ على لاحقٍ ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } ، ويقول جلَّ شأنه : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } .

وكما أنَّ النظامَ سنَّةٌ كونيةٌ ، فهو أيضاً مبدأً أصيلاً من مبادئ الشريعة الإسلامية ، فلقد جاءت الشريعة الإسلامية بنظامٍ دقيقٍ متناسقٍ ومتناغمٍ مع نظام هذا الكون المنضبط ، ليدل ذلك دلالة قاطعة على أن خالق الكون هو من أنزل هذا الشرع الحنيف ، ففي أمور العبادات نجد أن الصلاة وهي أعظم شرائع هذا الدين لها أوقات محددة ، وطريقة أداء منضبطة ، سواء أداها الإنسان منفرداً أم في جماعة ، بل جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول للصحابة : (سَوُّوا صُفُوفَكُمْ ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ) ، وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ أَحْتِرَامَ النِّظَامِ فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ قَائِلًا : (إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا ، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا...) ، ولاشك أن هذه صورة من أرقى وأبهى وأجمل صور النظام .

وكذلك الزكاة ، والصيام ، والحج ، وسائر العبادات تُؤدَّى وفق نظامٍ دقيقٍ مُفَصَّلٍ ومُوضَّحٍ كما وكيفاً وأداءً .

فالنظام مبدأ دعا إليه الإسلام ، وأمر أتباعه بأن يجعلوه سلوكاً يمارسونه في حياتهم اليومية ، حتى يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً منظمًا يتحمل كل فرد فيه مسؤوليته فيتحقق المصلحة العامة التي يحصد ثمارها المجتمع كله ، يقول نبينا (صلى الله

(٣)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...) ، فالمجتمع المسئول مجتمع منظم متماسك ، يعرف كل واحد فيه دوره ، ويحترم غيره ، وينظر بعين الخير للجميع .

لقد أسس الإسلام نظاماً عاماً لم يسبق إليه ، فأعاد صياغة منهج الحياة ؛ ليصير منهجاً وسطاً متوازناً في كل مناحيها حتى عند الطعام والشراب ، فقد وضع له نظامه وآدابه وثقافته ، فعَنْ مَقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، يَحْسَبُ ابْنُ آدَمَ أَكْلَاتٌ يُقْمَنُ صَلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالََةَ فُتِلْتُ لِعَطَامِهِ وَتِلْتُ لِشَرَابِهِ وَتِلْتُ لِنَفْسِهِ) ، وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنه) قال : كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَكَانَتْ يَدَيَّ تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ ، وَكُلْ يَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.

ومن أهم المواضع التي ينبغي أن يراعى فيها النظام ويسود : **احترام القانون** ، فإن احترام القانون بصفة عامة يعد أهم أعمدة النظام ، وصورة من صور استقامة السلوك الإنساني ؛ تحقيقاً لمصالح الفرد والمجتمع ، ونزعاً لفتيل الكثير من الأحقاد والمشكلات ، فالقانون وُضع ليطبق على الجميع بلا استثناء حماية لكل المواطنين ، وتنظيمًا للعلاقات والمعاملات ، فلا يتصور بقاء المجتمع مستقرًا دون احترام القوانين .

(٤)

والمتمأمل في حال الدول المتقدمة ، والمجتمعات الراقية يعلم يقيناً أنها ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا باحترامها للقوانين ، والتزامها بتطبيقها ، وإنك لتعجب حينما تجد كثيراً من أبنائنا الذين سافروا إلى هذه الدول يعلنون إعجابهم بدقة النظام ، والتزام الناس به ، وإخلاصهم في عملهم ، وانضباطهم في مواعيدهم ، ولكنهم هم أنفسهم إذا عادوا إلى أوطانهم مرة أخرى ترى بعضهم عاد سيرته الأولى من عدم الالتزام بالنظام ومحاولة التغلث من الالتزام بالقوانين وما ينظم الشأن العام .

ومن مظاهر احترام النظام : **الالتزام بقواعد المرور وضوابطه** ، فإن هذه القوانين وإن كانت من الأمور الحضارية المستجدة إلا أنها مستندة إلى أصول ثابتة في ديننا الحنيف الذي أصل لحقوق الطريق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الإِيمَانُ يَضَعُ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعُ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَمِطِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ) ، فإذا كانت إمطة الأذى عن الطريق صدقة ، وشعبة من شعب الإيمان ، وسبيلاً لدخول الجنة ، فكيف بمن يحترم قوانين المرور وضوابطه ولا يخالفها بالسير عكس الاتجاه ، أو بزيادة السرعة ، أو غير ذلك من الأمور التي تعتبر تعدياً على حقوق الطريق ، وعلى حقوق الناس والتي قد تتسبب في إزهاق روحه أو أرواح غيره ، أو إصابتهم ، أو ترويعهم ، والله (عز وجل) يقول : { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) .

ولقد بين لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن للطريق حقاً ينبغي علينا القيام به في قوله (صلى الله عليه وسلم) : (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ) ، قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) ، قالوا : وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ : (غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ

(٥)

الَّذِي ، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) ، فحق الطريق حق عام ينبغي احترامه والالتزام بما ينظم التعامل معه أو فيه .

ومن احترام النظام : الالتزام بمبدأ الحق والواجب ، فكما يريد الإنسان أن يأخذ حقه عليه أن يفي بواجبه تجاه مجتمعه سواء في أداء ما عليه من التزام أو سداد ما يُحصل من خدمات ، ولا يعتمد إلى التغلّت مما عليه من استحقاقات .

إن الأخذ بمبدأ مقابلة الحق بالواجب ضرورة شرعية ومجتمعية لضمان العدل بين الناس والتعايش في سلام وأمان ، فإذا نظرنا إلى هذا المبدأ بين صاحب العمل والعامل مثلاً وجدنا أن الإسلام قد بين حقوق وواجبات الطرفين ، فالعامل يجب عليه أن يلتزم بأخلاقيات العمل التي دعا إليها الإسلام من الصدق والوفاء بالعهود ، وأداء الأمانة على الوجه المطلوب والشكل المرغوب ، وكذلك صاحب العمل عليه أن يؤدي للعامل حقه ، وأن لا يظلمه شيئاً ، وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية ، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معا ، حيث يقول سبحانه في العلاقات بين الزوجين : { وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } ، ويقول سبحانه في الحديث القدسي : { ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ } .

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا ، وبخاصة في مجال العمل ، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد ، فيكون أحد الشقين معتدلاً والآخر مائلاً ، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معا ، والوفاء بالحقوق والواجبات معا ، نوّدي الذي علينا حتى يبارك الله (عز وجل) في الذي لنا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

(٦)

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن النظام سُنَّةٌ كونيةٌ ، وقيمةٌ إنسانيةٌ ، وضرورةٌ اجتماعيةٌ تعنى به المجتمعات المتقدمة ، وتحرض عليه الأمم المتحضرة ، وتحت مظلتها يتساوى الناس في الحقوق والواجبات ، فيحترم الإنسان غيره ، ويؤدي إلى الناس حقوقهم ، ويحب لهم ما يحب لنفسه ، فاحترام الآخرين بصفة عامة دليل احترام الإنسان نفسه ، ولو كان ذلك في بعض الأمور التي يرى بعض الناس أنها هينة كالالتزام بالصف وعدم تجاوز الآخرين والتعدي على حقهم في الأسبقية في أي مكان ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) .

وعلى هذا المبدأ من القيام بالواجبات واحترام حقوق الآخرين عاش أصحاب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من بعده ، ففي عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) كلف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بولاية القضاء في المدينة ، فمكث سنة لم يختصم إليه اثنان ، فطلب من الصديق (رضي الله عنه) إعفائه من القضاء ، فقال أبو بكر (رضي الله عنه) : أَمِنْ مَشَقَّةِ الْقَضَاءِ تَطْلُبُ الْإِعْفَاءَ يَا عُمَرُ؟ قَالَ : لَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ما له من حق ، فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب ، فلم يقصر في أدائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب عزوه وواسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففيم يختصمون؟! ففيم يختصمون!؟

(٧)

ألا ما أحوجنا إلى احترام النظام والتزام القوانين ، ومراعاة حقوق الآخرين ،
وتربية أبنائنا على ذلك ، حتى يسود العدل ، وتنتشر روح الإخاء والمحبة والمودة ،
وينعم المجتمع كله بالأمن والأمان والاستقرار ، ونرى بلادنا في المكانة التي تليق
بها بين الأمم .

**اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .**